

الياس صالح اللاذقي

١٨٣٩ - ١٨٨٥

جبرائيل سعادة

الياس بن موسى بن سمعان بن صالح • انه دون شك من أعظم الرجال الذين أنجبتهم اللاذقية • نجد نبذة عنه في المعاجم وفي العديد من المراجع (١) وهي تشير الى المجالات الشتى التي برز فيها فتشيد بالمؤرخ والعالم ذي الثقافة الواسعة وبالشاعر والمفكر ، وتتحدث عن تضلعه بالقوانين وامكاناته في معرفة اللغات الأجنبية والترجمة كما تذكر ما كان يتحلى به من أخلاق رفيعة • يقول الدكتور سليم الجريديني انه كان « أديباً تفاخر بأدابه الأدباء ، عالماً قد جمع من رياض العلوم أطيب الاثمار وشاعراً قد جنى من حدائق الشعر أذكى الأزهار » (٢) ونقرأ في جريدة الأهرام القاهرية انه « كان وديعاً حسن الأخلاق غزير المادة واسع الاطلاع ، كاتباً لبيباً وشاعراً متفنناً » (٣) وتقول مجلة الجنان : « كان وديعاً متواضعاً محبوباً أديباً ، كان على جانب عظيم من الفطنة والذكاء فاصبح بكده وثباته كاتباً وشاعراً بليغاً ... وبالجمله كان زهرة اللاذقية وروثها » (٤) •

واذا كان اسمه اليوم يتردد من حين الى آخر بين المهتمين بالماضي فالجيل الحاضر يكاد يجهله ، بينما هو جدير بأن نهتم به وبالتراث الذي خلفه لنا • لذلك رأينا أن نقدم في بحثنا هذا لمحة عن أسرته وأن نروي قصة حياته وأن نقوم بدراسة مؤلفاته المطبوعة وغير المطبوعة •

□ أسرة صالح :

منشأ الأسرة مدينة غزة في فلسطين (٥) وأقدم اسم وصل اليها منها هو المعلم صالح الذي ولد سنة ١٧٣٠ • ولفظة « المعلم » تعني في اصطلاح ذلك الزمن الموظف المسيحي الكبير في الدولة • وفعلاً كان صالح موظفاً في غزة وتوفي فيها سنة ١٧٩٠ تاركاً ولدين هما خليل وسمعان (٦) •

ولد سمعان صالح حوالي سنة ١٧٦٠ في غزة وترعرع فيها ثم غادرها سنة ١٧٩٦ وسكن يافا مقر الولاية آنذاك اذ استقدمه اليها واليها محمد أبو مرق واتخذة رئيساً لكتاب ايالتها ، وقد ترمّل عن ولد اسمه سالم وعدة بنات (٧) . وحدث أن الجزار والي عكا ، غضب على محمد أبي مرق وهم أن يفتك به . وعلى أثر ذلك فرّ أبو مرق من يافا الى اللاذقية والتجأ الى حنا كبة الذي كان حاكمها الفعلي (٨) فأنزله عنده ضيفاً مكرماً . ولما بلغ الجزار أن والي يافا أصبح في اللاذقية ، كتب الى حنا كبة يطلبه منه فرفض حاكم اللاذقية تسليمه ثم توصل بمساعيه الى استصدار قرار من الصدر الأعظم في استنبول برجوع أبي مرق الى ايالته وأمر الى الجزار ألا يتعرض اليه بسوء . خضع الجزار مرغماً لهذه الأوامر ولكنه حقد على حنا كبة وقصد الانتقام منه وحرّض الذين دبروا اغتياله سنة ١٨٠٣ .

بعد مقتل حنا كبة ، غادرت زوجته اللاذقية مع أولادها ورحلت الى يافا والتجأت الى واليها محمد أبي مرق الذي كان ما يزال يحفظ الجميل لمعروف زوجها معه . فأحسن استقبالها وصار ينفق عليها من خزينته . ثم طلب من سمعان صالح الذي كان، كما ذكرنا، موظفاً في ولاية يافا أن يقترب بابنتها واسمها ايرين ، فتزوج سمعان صالح من ابنة حنا كبة ورزق منها ذكرين هما الياس وموسى (٩) وثلاث بنات . وفي سنة ١٨٢٥ قتل سمعان صالح في دمشق على أثر حوادث يطول سردها هنا (١٠) ولما حاصر ابراهيم باشا المصري مدينة عكا سنة ١٨٣١ انتهزت أرملة الفرصة وجاءت الى اللاذقية مع والدتها وابنتها موسى وبناتها .

في سنة ١٨٣٧ تزوج موسى صالح من فتاة توفيت بعد عرسها بأربعين يوماً فتزوج من فتاة أخرى اسمها مناشة هي ابنة الياس نعمة من أهالي اللاذقية ورزق منها ثلاثة أولاد ذكور بكرهم الياس موضوع بحثنا (١١) وقد تعاظم موسى تجارة التبغ مع القطر المصري وكان له محل في الأسكلة ، ولكنه خسر أمواله في هذه التجارة فترك عائلته في سنة ١٨٤٩ وذهب نهائياً الى القدس وتوفي فيها سنة ١٨٦٧ .

□ حياة الياس صالح :

نعمد في رواية حياة الياس صالح على ثلاث تراجم ، الأولى هي التي نشرت سنة ١٨٨٥ في مجلة الجنان (١٢) والثانية بقلم أسعد خليل داغر نشرت في سنة ١٩١٠ (١٣) والثالثة بقلم نصر الله طليع نشرت في سنة ١٩٢٥ (١٤) .

ولد الياس صالح في ٢٦ كانون الثاني ١٨٣٩ (١٥) . ولا نعلم شيئاً يذكر عن طفولته . ان والدته هي التي تحملت مسؤولية تربيته وتربية اخوته بعد رحيل والده الى فلسطين . يبدو أن ميله للاطلاع والعلم ظهر لديه منذ سن المراهقة فما ان أدرك شيئاً من مبادئ القراءة حتى أخذ يطالع الكتب كما اهتم بتعلم الخط والكتابة . ويروي أنه اذا أعوزه الورق كان يكتب على جدران البيت وأخشاب النوافذ والأبواب وهذا يبرز لنا صورة فتى يعيش في بلدة كان عدده سكانها لا يتجاوز ستة آلاف نسمة (١٦) ويحمل في أعماق نفسه عطشاً كبيراً للمعرفة وقد قيل ان الكتاب كان سميره والقلم رفيقه وخيله .

في سنة ١٨٦٠ فتحت أبوابها مدرسة المذكور التي أسستها الارسالية الانجيلية الأميركية في اللاذقية (١٧) . التحق الشاب بها وعلى مقاعدها تمكن من قواعد اللغة العربية التي كان متشوقاً لمعرفة . وكان يقضي أوقات فراغه بالمطالعة ويخبرنا أسعد خليل داغر أن من بين الكتب التي قرأها ودرسها في هذه المرحلة « شرح ألفية ابن مالك » لابن عقيل وكتاب « فصل الخطاب » وكتاب « نقطة القوافي » وكلاهما للشيخ ناصيف اليازجي . كما أتقن اللغة العربية والخط العربي اتقاناً فائقاً وكذلك اللغة التركية وحصل على بعض الامام باللغات الفرنسية والانكليزية والاطالنية وبهذا كان يتفوق على أبناء جيله في اللاذقية .

عين في سنة ١٨٦٦ ترجماناً لقنصلية أميركا في اللاذقية ثم تعاطى التجارة فترة ولكنه لم ينجح في هذا المجال . انما أمّن بعض الربح باشتراكه في التزام اعشار قضائي اللاذقية وجبله ، الأمر الذي مكّنه من تحسين هيئة داره ، مع العلم أن منزله كان يقع في شارع هنانو الحالي وأصبح فيما بعد ملك سليم نصري وقد تحول اليوم إلى فندق رمسيس .

في سنة ١٨٦٩ كلفته الارسالية الانجيلية أن ينظم سفر المزامير شعراً بالعربية كي ينشد بهذه اللغة أثناء العبادة . وفي سنة ١٨٧٠ عين مراسلاً لكل من مجلة الجنان وجريدة الجنة للثنين كان يصدرهما في بيروت الشيخ بطرس البستاني .

في سنة ١٨٧١ عقد خطبته على فتاة يونانية مقيمة في بيروت اسمها لوكيا بتروفيتش (١٨) وذلك عن طريق نسيبها مطران اللاذقية ملاتيوس دوماني . وبعد حوالي خمسة أشهر سافر إلى بيروت وأتى بها إلى اللاذقية حيث تمّ اكليله عليها . كانت الفتاة في السادسة عشرة من عمرها ، أما هو فكان في الثانية والثلاثين . وتصفه المصادر بأنه كان طويل القامة ، نحيف الجسم ، أسمر اللون .

في تشرين الثاني ١٨٧٢ عند سفر قنصل أميركا إلى الخارج ، تولى مؤقتاً إدارة القنصلية . ثم شرع بتأليف تاريخ مدينة اللاذقية وبدأ بكتابته في سنة ١٨٧٣ . وفي أواخر ايلول ١٨٧٤ سافر إلى مصر ليطلب ترجمته لسفر المزامير ، وبقي هناك حتى حزيران ١٨٧٥ وفي تموز من السنة نفسها استقال من وظيفته في القنصلية الأميركية لينصرف إلى الخدمة في جهاز الدولة فانتدب لعضوية مجلس دعاوى القضاء ، وعند تشكيل محكمة البداية انتخب عضواً فيها وظل انتخابه يتجدد لما كان يتمتع به من كفاءة ونزاهة ووطنية صادقة ولما كان يولي الناس من نفع وخدمات . وفي هذه الفترة عين رئيساً للجمعية الخيرية الأرثوذكسية . وهكذا أصبح يحتل مركزاً مرموقاً في المجتمع وفي الأوساط الحكومية ونراه يلعب دوراً هاماً في المساعي التي بذلت لرفع اللاذقية من رتبة قائممقامية إلى رتبة متصرفية ، وقد كلف في سنة ١٨٧٩ بوضع مذكرة بهذا الخصوص كي ترفع إلى الوالي مدحت باشا . كما تتجلى مكانته الأدبية بالعلاقات الوثيقة التي كانت تربطه بعدد من الأدباء والشخصيات في المدن السورية واللبنانية وفي مصر .

لا تذكر المصادر في أي تاريخ بالضبط ابتداء وضعه الصحي بالتأزم . هل حصل ذلك في سنة ١٨٨١ إذ نراه في تلك السنة يتوقف فجأة عن متابعة كتابة تاريخ اللاذقية ..؟ كل

ما تقوله المصادر أنه انقطع عن الخدمة ليتعالج في اللاذقية وفي بيروت، وفي الوقت نفسه تخبرنا أنه مات بعد مرض قصير المدة . كان عمره آنذاك ستاً وأربعين سنة وله صبي (١٩) وأربع بنات وكلهم أطفال صغار .

كانت وفاته في ١٥ ايلول سنة ١٨٨٥ عند الفجر . وشيعت جنازته في الساعة الأولى من بعد الظهر واشترك فيها موظفو الدولة ووكلاء القناصل وأعيان المدينة ، وصلي على جثمانه في كنيسة مار سابا ودفن في المقبرة التابعة لها، وبعد الصلاة قام بتأبينه بعض الأدباء (٢٠) . وفي سنة ١٩٤٦ عندما هدمت الكنيسة المذكورة لتبني مكانها الثانوية الوطنية نقلت المدافن التي بجوارها إلى مقبرة الفاروس وتثوى الآن رفاة الياس صالح في هذه المقبرة تحت باقة من أشجار السرو وعلى ضريحه نقراً هذه الأبيات التي نظمها أسعد خليل داغر :

كريم بهذا اللحد بات موسدا	عليه غدا طرفي المكارم نائحا
عماد العلي الياس صالح مذ هو	على كل قلب خطبه شق فادحا
مضت عينه عنا وآثار فضله	يظل شذاها في الملا الدهر فائحا
أتاه من المولى الملاك مبشرا	ملقى أحضان المسرة فاتحا
وناداه اذ لله أرخته لجأ	لالياس أضحي موطن الخلد صالحا

□ المؤلفات :

أول مؤلف مطبوع هو « خطبة في حقيقة التهذيب » (٢١) . انه كراس صغير يقع في أربعة وعشرين صفحة . أهميته تكمن في أنه يعبر عن الأفكار التي كانت تجول في خاطر شاب كان في السابعة والعشرين من عمره يعيش في بلدة أصبح عدد سكانها حوالي أحد عشر ألف نسمة (٢٢) .

يدعو الياس صالح في بحثه هذا إلى ضرورة الاهتمام باللغة العربية وينتقد الطريقة التي كانت تدرس بها في تلك الأيام فيقول : « ان تدريس اللغة العربية في المكاتب البسيطة ليس هو الا عبارة عن تعليم تهجئة الألفاظ والنطق بها سواء فهم معناها أم لم يفهم . . . ولا يخفى أن الألفاظ هي قوالب للمعاني فمن تعلم اللفظ دون معناه تعلم عملاً ميتاً لا منفعة فيه » . وهو يعتبر أن من واجبات الجيل الجديد تهذيب العقول بالعلوم . لذلك يدعو إلى التخلص عن الكسل والتسلية في المقاهي ويحث الناس على المطالعة التي كانت في مجتمع اللاذقية آنذاك المنفذ الوحيد للمعرفة . وعن الذين يهملونها يقول : انهم « وقفوا على الحدود التي وصلوا إليها حين خروجهم من المدرسة ومع الترك والاهمال قد ينسون جزءاً كبيراً مما تعلموه » . فكأنهم يعتقدون أنه لا يجوز للمتعلم أن يجاوز ما تعلمه في المدرسة أو أنه لا يقدر أن يكتسب شيئاً خارجاً عنها مع أننا نعلم أن كثيرين من التلاميذ المنسويين إلى التقصير وهم داخل المدرسة قد برعوا بعد خروجهم منها ووصلوا إلى درجة معتبرة من العلوم بجهد المطالعة والاعتناء وان كثيرين من المشتهرين بالبراعة وهم داخل المدرسة قد

تقهقروا الى الوراء بعد خروجهم منها وماتت براعتهم لقلّة اعتنائهم وتركهم المطالعة » .
ويقول أيضاً : « كما يعتني الانسان بتغذية جسده بالماكول والمشروب يجب أن يعتني بنوع
أخص بتغذية عقله بالعلوم والمعارف بواسطة البحث والمطالعة » .

ويطالب الشبان بعدم تقليد عادات البلاد الأجنبية ويحث على تهذيب أنفسهم بما يسميه
المحبة الوطنية فيقول : « ان من أركان التهذيب العظمى المحبة الوطنية فان بها تعقد رباطات
الاتحاد على كل ما من شأنه أن يكسب الوطن زهواً ورونقاً وأبناءه تقدماً ونجاحاً . . . فمن
الواجب على كل وطني أن ينظر الى عموم أبناء الوطن بعين واحدة ويمد يد المساعدة
على قدر وسعه التقوية وسائط نجاحهم » . ومن جهة أخرى يؤكد على ضرورة تعليم النساء
فيقول : « ان المرأة اذا اشغلت أوقاتها الفارغة بمطالعة الكتب المفيدة تكون منفعتها لنفسها
ولزوجها ولأولادها وليبتها أكثر مما اذا جلست في زاوية الجهل كالآلة الصامتة » ويختم
بحثه بهذه القصيدة :

فجبر العلوم على أرجائكم طلعا	فنبهوا منكم الطرف الذي هجعا
وشاهدوا الكون في هذا الزمان تروا	نور التهذب في أقطاره سطعا
دعوا الفتور وجاروا يا بني وطني	في العصر من من بني بالهدى برعا
لا يقنط المرء اذ قد جاز سن صبا	فالعلم يفتح أبواباً لمن قرعا
وليس للمرء من فضل يزان به	ان لم يكن في نهاء للعلوم وعى
ذوقوا المعارف يبدو طعم لذتها	لمن يذوق فما يدر به من سمعا
واتلوا المصاحف بالامعان واختبروا	منها الحقائق واستهلوا لما نفعا
ليس التهذب في تقليد من نسبوا	اليه ان لم يكن بالعلم قد شفعا
ها العصر يسرع ركضاً في تقدمه	وليس ينجح الا من له تبععا
ومن قنى العلم يجن من فوائده	لا بد للمرء من حصد اذا زرعا

المؤلف المطبوع الثاني هو « بهجة الضمير في نظم المزامير » (٢٣) . المعروف أنه في
الكنيسة الانجيلية تنشد المزامير وفق ألحان معينة وكل بلد في العالم ينشدها طبعاً بلفته .
وفي سنة ١٨٦٩ عندما نشأت في اللاذقية طائفة بروتستانتية كان في بادئ الأمر يوضع بين
أيدي المصلين كتاب يحمل نص المزامير باللغة الانكليزية فطلب من الياس صالح، كما ذكرنا،
أن يسبك المزامير بالعربية لترنم بهذه اللغة . وكان عملاً في غاية الصعوبة اذ كان على
المترجم أن يضع نصاً يحافظ فيه على المعنى الأصلي وذلك في قالب من النظم يتفق مع
اللحن الموسيقي الموضوع للنص الانكليزي .

ومن بين مخلفات الياس صالح المطبوعة يجب أن نشير الى الرسائل التي نشرها في كل
من مجلة « الجنان » وجريدة « الجنة » عندما أصبح مراسلها في اللاذقية . ففي سنة ١٨٧٠

بعث الى مجلة الجنان عدداً من الرسائل ومن ١٨٧١ حتى ١٨٧٧ بعث الى جريدة الجنة بشكل منتظم عدداً كبيراً من الرسائل (٢٤) ورسائله كلها تتناول الحوادث التي جرت خلال تلك الفترة في اللاذقية وفي قضائها .

ونذكر أخيراً من بين المؤلفات المطبوعة قصائده المنشورة سنة ١٩١٠ في كتاب « مرآتي وديوان المرحوم الياس صالح » . ان الأديب المعروف ادوار مرقص هو الذي قام بجمع القصائد وتبويبها كما أشرف على الطباعة وذلك بتكليف من رفيق صالح الذي كان وقتئذ مقيماً في السودان . ويتضمن الكتاب ترجمة الياس صالح التي كتبها أسعد خليل داغر ويليهما قسم المراثي حيث نجد ما قيل فيه عند وفاته وكذلك نعيه من قبل الصحفيين القاهريتين الأهرام والمحروسة .

أما القصائد فوزعت على سبعة أبواب . الباب الأول خاص بالفلز والنسيب ويتضمن الباب الثاني رسائل شعرية الى بعض الأقرباء والأصدقاء والأدباء . ونجد في الباب الثالث المدائح والتهاني . وفي الباب الرابع المراثي والمتعازي . أما الباب الخامس فمكرس لأغراض شتى منها تخاليس القصائد معروفة . ويتضمن الباب السادس أناشيد في مدح مريم العذراء . أما الباب السابع والأخير فيحتوي تواريف ولولادات وأكالييل ووفيات وفيه أيضاً أبيات نقشت على أضرحة .

هذه بعض المقتطفات في الفلز :

لولاك ما علق الهوى بجوانحي	قسماً بناظرك الكحيل الجارح
ان الهوى ولّى كأمس البارح	قد كنت أحسب بعدما ولّى الصبا
قد عاد يسري في جميع جوارحي	فاذا به لما بدوت لمقلتي
لي في الهوى مرء العذاب الفادح	لله كم قاسيت فيك وكم حلا
عزّت أراني كنت عين الرابع	واذا خسرت بجبّك النفس التي

★ ★ ★

من فتكها وهي المنى والمطلب	حور العيون سطت فاين المهرب
وتتيح للصبّ العذاب فيعذب	تدمي القلوب فيستطاب جراحها
نظراتها عن سحر بابل تعرب	فتأكة ملائكة قد أصبحت
تسبي برقّتها العقول وتنهب	تقسو على مفتونها مع أنّها
قلبي على جمر الغضا يتقلب	ممشوقة الأعطاف قد أضحي بها

★ ★ ★

وتكلف العين البكاء فتذرف
عنها وأنت من المعاطب متلف
بك كل خود في الهوى تتصرف
ألم الجراح وأنت مضى مدنف
كرماً على دنف أتى يستعطف
واذا وعدت فأنني لا أخلف
أنى بمدرسة الغرام مثقف

★ ★ ★

ورنت فقلت غزال سرب يرمق
غصناً ولكن بالمحاسن يورق
صبح بدا من فرقها يتألق

★ ★ ★

فيضنى بها جسم لذاك نحيل
فيشده بي بين الضلوع غليل
هيام الى تلك الوجوه وبيل
لصفو بكاسات الهناء ثمول
سناها على مر الزمان يزول
يبين له القلب الكليم عليل

ومن بين الحكم التي يتضمنها الديوان هذه الأبيات :

وما في الكون طراً للزوال
كمن يرجو النهار من الهلال
فأنت تهيم في وادي الضلال
بان من المحال دوام حال

حتام تصبو يا فؤاد وتكلف
وتميل نحو الفانيات فتنثني
وتجاذبتك الغيد حتى قد غدت
حتى غدوت اليوم تشكو هائماً
بك قد فتنت أيا مليحة فاعطفي
واذا عشقت فاستحيل صباية
واذا اختبرت شمالي تجدينني

نضت النقب فقلت بدر مشرق
وتمايلت تثني القوام فمائلت
أرخت غياهب فرعها فاماطها

بقيّة عشق في الفؤاد تجول
وتنثر بي الوجد القديم الذي انطوى
تملك قلبي جنهنّ وحلّ بي
رعى الله أياماً بها دار بيننا
نعمت بها عيشاً ولم أك حاسباً
سقاني صرف الدهر صرف مرارة

حياة المرء تمضي كالخيال
ومن يرجو بني الدنيا قراراً
رويدك عاشق الدنيا غروراً
فلا تطمع برغد العيش واعلم

ونقرأ في الديوان القصيدة التي نظمها بمناسبة قدوم والي سورية مدحت باشا الى
اللاذقية وكان له الفضل في رفعها الى رتبة متصرفية . وصل الوالي الى مدينتنا عن طريق

البحر في شهر آب من سنة ١٨٧٩ وأقام فيها بضعة أيام بقيت المدينة خلالها مزينة بالأعلام
واقامت على شرفه الاحتفالات والمآدب (٢٥) والمعروف أن مدحت باشا كان محبوباً من قبل
السوريين بسبب رغبته في إجراء إصلاحات في البلاد . ففي هذا الجو من السرور والغبطة
الذي عم أرجاء اللاذقية قدّم الياس صالح إلى الوالي القصيدة التالية :

يا كوكباً فيه المطالع تسعد	مقل الورى اياك أمست ترصد
ونتيجة الدهر الذي بك يحمد	يا مدحت العصر الذي بك فخره
بغزير فضلك في البرية تشهد	انظر تر الدنيا اليك مشيرة
اذ أنت بينهم عجيب مفرد	ونواظر الأنام فيك شواخصاً
أضحت عليك من الممالك تحسد	وربوع سوريا تتيه فانها
فلأنت في فلك السعادة فرقد	أشرقت فيها ماحياً ظلم الشقا
وجلا خفاها فكرك المتوقد	ولك السياسة قد عنت وتذلت
ظل الزمان بها يعيث ويفسد	أحييت آمالاً لأهل ولاية
علوه أمراً يستحيل ويبعد	فتيقنوا الإصلاح حتماً بعدما
فشدا بها طير السرور يفرّد	شرفت أرض اللاذقية منة
زهواً وأهلوها بوفدك عيّدوا	واخضرت الأكمام في أرجائها
مننا تدوم على المدى وتؤبد	طوقتهم اذ قد أعلت لواءهم
وأعلت رونقه له يتجدد	لا بدع أن أحييت ميّت قطرنا
فما لك الفضل الذي لا ينفد	أنت الخليق بفعل كل عجيبة
في صحف تاريخ الدهور يخلّد	وبأحرف الذهب اسمك السامي غداً
بالعزّ يخدمك العلى والسودد	فأجرر ذيول المجد دوماً رافلاً

ننتقل الى المؤلفات غير المطبوعة مع العلم أنه لم يصل إلينا الا واحدة منها . لقد
عثرنا على لائحة بخط رفيق صالح تعدد كل المخطوطات ، الأمر الذي يسمح لنا بتحديد
المؤلفات المفقودة .

تذكر اللائحة أربعة مؤلفات معربة عن التركية وهي :

— « قانون التجارة الهمايوني » .

— « قانون الرسوم التي تؤخذ في المحاكم العثمانية » .

- « ما لم يعرب من النظمات المتعلقة بالمحاكم النظامية » .
- « احكام ونظامات وتعليمات الولايات في الحكومة العثمانية » .
- وتذكر اللائحة كتابين مترجمين عن الفرنسية هما :
- مذايح سورية سنة ١٨٦٠ « لفرانسوا نونورمان (٢٦) » .
- « رسائل مسيو بوجولا عن سياحته في اللاذقية والوائها سنة ١٨٣١ » (٢٧) .

وتشير اللائحة الى « مخطوطات أدبية شتى » . غير أنها لا تذكر « اليوميات » وأسعد خليل داغر هو الوحيد الذي نوه عنها (٢٨) ، انه يخبرنا أن الياس صالح ، اعتباراً من سنة ١٨٧٥ ، أخذ يدون « يومية حياته مبتدئاً بذكر نسبه ومنشأ أسرته بالتطويل ثم تتبع بعدها مجرى الحوادث التي عرضت له والمخطوط التي سلكها والمهن التي احترفها والوظائف التي تقلدها في حياته الى نهاية ١٨٧٨ » .

المخطوط الوحيد الذي وصل اليينا هو الذي يحمل عنوان « آثار الحقب في لاذقية العرب » . وهو اهم ما خلفه الياس صالح كما انه اهم ما كتب حتى الآن عن تاريخ مدينتنا . انه مخطوط في ثلاثة مجلدات يقع في ٦١٤ صفحة وهو بخط يده . لقد بدأ بتأليفه سنة ١٨٧٣ وتوقف عن متابعة كتابته سنة ١٨٨١ .

يقسم هذا المؤلف الى قسمين . عنوان القسم الأول « في جغرافية اللاذقية ووضعها الحالي » وهو يشكل ربع الكتاب تقريباً . انه دراسة مفصلة ودقيقة ، موثقة بالاحصاءات والارقام عن وضع المدينة في سنة ١٨٧٣ أي في الوقت الذي كان يكتب فيه دراسته . ويتألف هذا القسم من عدة فصول يتناول فيها موقع اللاذقية الجغرافي وعدد سكانها ومنازلها والمباني الأثرية الموجودة فيها وتجارتها وصناعاتها ووضع سكانها الاجتماعي كما يتناول اللواء التابع ادارياً لمدينة اللاذقية فيبحث في مدنه ومبانيه التاريخية وسكانه وأحوالهم وأنهره وحيواناته ومحاصيله وحالة الزراعة فيه ودخل الدولة في اللواء وخرجها . أما القسم الثاني فعنوانه : « تاريخ لاذقية العرب » ويتألف بدوره من ثلاثة فصول . يروي الفصل الأول تاريخ المدينة من البدء حتى الفتح العربي ويتناول الفصل الثاني اللاذقية أثناء الفتح العربي والحروب الصليبية وعهد المماليك . ويبحث الفصل الثالث في المدينة تحت لواء الدولة العثمانية .

سؤال يطرح حول المراجع التي استقى منها معلوماته . فلو كان في زمنه تاريخ لمدينة اللاذقية من وضع أحد العلماء الأجانب وموثق بالمراجع لقلنا ان الياس صالح اكتفى بأن ينقل الى العربية ما وجدته في مؤلف غريب أو على الأقل أنه استفاد من المراجع الموجودة فيه عوضاً من أن يفتش عنها بنفسه . ولكننا نعرف أن أقدم تاريخ للاذقية وضع في الخارج هو للعالم البلجيكي Ernest HONIGMANN ، نشر القسم الأول منه سنة ١٩٢٤ في دائرة المعارف الألمانية . والقسم الثاني سنة ١٩٣٦ في دائرة المعارف الاسلامية ، أي بعد وفاة

الياس صالح بعدة عقود . لذلك لا بد من أن نفترض أنه توصل الى المراجع التي يحتاجها بحثه بجهد الخاص وقد عبّر ابنه رفيق صالح عن هذا الجهد بالبيتين التاليين :

واللاذقية أمنا بك تزدهي أيضاً بتاريخ عظيم الشأن
جاهلت في التحقيق والتدقيق وال تنقيب والتدوين والامعان

في سياق حديثه عن العصور القديمة والقرون الوسطى نراه يشير صراحة الى بعض المراجع الكلاسيكية والفرنجية والعربية وأحياناً الى أبحاث حديثة (٢٩) . ومن الواضح ، عندما نقرأ تاريخه ، انه كان متمكناً من معلوماته فهو يروي الحوادث التي مرت على مدينتنا ، في تسلسلها الزمني ومع الكثير من التفاصيل فلا مجال أن نتصور أنه استند على معلومات مبثورة هنا وهناك في كتب الرحالة الأجانب . فلا شك أن الياس صالح عند وضع كتابه كان مطلعاً على عدد كبير من المراجع وليس فقط تلك التي أشار اليها صراحة . وهذا يطبق أيضاً على الملحة التي قدمها عن المباني الأثرية في اللاذقية وفي قضائها . فالسؤال الذي يطرح هو كيف توصل الياس صالح الى هذه المراجع؟ ليس هناك مشكلة بالنسبة للمؤلفات العربية إذ كان بوسعه أن يطلع عليها في المكتبات الموجودة آنذاك في اللاذقية أمثال مكتبة الشيخ محمد سعيد الأزهري ومكتبة الشيخ عبدالفتاح المحمودي ومكتبة الحاج محمد صالح الصوفي ولا يستبعد أن يكون قد اقتنى بنفسه بعضاً منها ولكن الأمر يختلف كلياً بالنسبة للمراجع المتعلقة بالعصور القديمة وبالعهد البيزنطي وبالغروب الصليبية وكذلك بالمباني الأثرية . وهذه المراجع نادرة جداً ولا توجد عادة ، حتى في يومنا الحاضر ، الا في المكتبات العامة الكبرى . وإذا سلمنا جدلاً أنه اقتبس الكثير من مؤلفات الرحالة ، فهذه المؤلفات هي أيضاً نادرة وليس من السهل الوصول اليها . نذكر بالمناسبة أنه لا يشير في مخطوطه صراحة الا لكتاب الرحالة بوجولا . ولا شك أن هذا الكتاب كان بحوزته إذ رأينا أنه قام بترجمة قسم منه .

كيف توصل الياس صالح الى المؤلفات التي استند اليها ..؟ هل كانت متوفرة في اللاذقية ؟.. لقد فهمنا أن مكتبة الارسالية الأميركية ومكتبة دير اللاتين لم تكونا تحتويان على كتب من هذا القبيل . لذلك يجب أن نفترض أنه وجد مطلبه خارج مدينته . ولا تذكر المصادر أنه غادر مسقط رأسه سوى ثلاث مرات ، المرة الأولى سنة ١٨٧١ عندما ذهب الى بيروت ليأتي بالخطيبة ولا نتصور أنه استطاع خلال سفره السريع هذا أن يجد الفرصة لقضاء الوقت الضروري في إحدى المكتبات العامة . أما رحلته الثانية فكانت الى مصر في ايلول ١٨٧٤ ، صحيح أنه كان بالامكان خلال ثمانية أشهر التي مكثها هناك أن يتفرغ للبحث العلمي ، انما يجب ألا ننسى أنه كان عندئذ قد قطع شوطاً كبيراً في كتابة تاريخه وكان قد انتهى من العصور القديمة والقرون الوسطى . وأما بالنسبة لسفره الثالث الى بيروت من أجل التداوي فكان وقتها قد توقف نهائياً عن كتابة تاريخ اللاذقية ، بناء على ذلك يبقى السؤال الذي طرحناه دون جواب الا اذا ثبت يوماً أنه قام بسفر لم تذكره المصادر أو أنه كلف في الخارج من آمن له المصادر التي يحتاجها .

هذا بالنسبة للفصلين الأولين من الكتاب أما بالنسبة للفصل الثالث المتعلق بالمعهد العثماني فوضعه يختلف كلياً بخصوص المراجع . فنراه في البداية يعتمد على بعض الروايات المكتوبة حالتي يجدها في هوامش الكتب الكنسية (٤٠) ثم يعتمد على روايات متواترة شفويا من جيل الى جيل لا سيما اذا لم تكن ببعيدة عنه . نذكر على سبيل المثال زلزال ١٧٩٦ و زلزال ١٨٢٢ وقصة حنا كبة فاذا كان يتحدث عنها بدفة وبكثير من التفاصيل فلانه سمع أخبارها وهو شاب من اناس كانوا لا يزالون على قيد الحياة وبعد ذلك صار يتحدث عن حوادث شاهدها بنفسه .

ياخذ الكتاب طابعا جديداً اعتباراً من سنة ١٨٧٣ أي بعد أن اتم كتابة المقدمة الخاصة بوضع المدينة آنذاك وانتهى من رواية تاريخها من البدء حتى سنة ١٨٧٣ . فصار اعتباراً من تلك السنة يدون الحوادث عند حدوثها . لقد انتهى من تاريخ الماضي وابتدا يكتب « تاريخ الحاضر » اذا صح هذا التعبير ، لذلك أصبح الكتاب يشبه اليوميات . وهنا يجب ان نقول صراحة ان الياس صالح في هذا القسم من مؤلفه يفقد شيئاً من موضوعيته والمعروف ان المؤرخ معرض أن يتأثر بميوله ورائه الخاصة عندما يتحدث عن حوادث يعيش في وسطها ، وبعد ذلك نرى رواية الحوادث تتوقف فجأة في سنة ١٨٨١ رغم ان الياس صالح بقي على قيد الحياة حتى سنة ١٨٨٥ .

ما قيمة هذا الكتاب العلمية بالنسبة للمعلومات التي يقدمها اليوم للباحث ؟ لا شك أن ما ورد في الفصلين الأول والثاني عن المدينة في العصور القديمة والقرون الوسطى يمكن حالياً معرفته عن طريق مراجع أخرى . لذلك نعتقد أن أهمية مخطوط الياس صالح تكمن في الفصل الثالث الخاص بالعهد العثماني وفي المقدمة عن وضع اللاذقية عند المباشرة بالتأليف ، لأن المعلومات التي يعطيناها بغزارة عن هذه الحقبة من تاريخ مدينتنا لا توجد بهذا الشمول وهذه الكثرة الا في هذا المؤلف .

ما كان مصير المخطوط بعد وفاة مؤلفه ؟ كان ابنه رفيق صالح عندئذ في السادسة من عمره فليس هو من وجد المخطوط بين الوثائق التي تركها والده . اننا نعلم أن شقيقه يوسف صالح هو الذي أخذ على عاتقه تربية أولاد الياس صالح الصغار لذلك نميل الى الاعتقاد أنه هو الذي اعتنى بالحفاظ على المخطوط . على كل حال يبدو أن وجوده لم يكن مجهولاً إذ ان مقال مجلة الجنان الذي نشر بعد الوفاة بخمسة عشر يوماً يذكره بين مؤلفات الياس صالح . ومن جهة أخرى نشرت مجلة النور التي كانت تصدر في اللاذقية مقاطع من المخطوط تارة بالنص الحرفي وتارة مع تلخيصه او مع تعديلات طفيفة وذلك في أعدادها ٢ و ٣ و ٤ و ٥ من سنة ١٩٢٥ والعدد ٢ من سنة ١٩٢٦ (٣١) وبعد ذلك أصبح شبه منسي لا يعلم بوجوده الا القليلون رغم أن بعض المراجع تأتي على ذكره .

لقد نشرنا في سنة ١٩٥٨ بعض المعلومات الواردة فيه في بحثنا عن تاريخ التبغ في اللاذقية (٣٢) كما نشرنا في سنة ١٩٦٠ بعض المعلومات المستقاة منه في دراستنا عن دير الفاروس (٣٣) وقد فهمنا مؤخراً أن حفيده السيد كمال صالح مزعم على القيام بنشره .

وفي النهاية نورد هنا ما صرحنا به في البحث الذي ألقيناه سنة ١٩٨٦ أثناء أسبوع العلم^(٢٤) : « أن الأسماء التي تطلق على شوارع مدينة وعلى ساحاتها لها دور في أحياء التاريخ لما فيها من إشارة الى حوادث هامة أو من تكريم شخصيات برزوا في المجال القومي والمجال الحضاري . نذكر أنه لا يوجد في مدينتنا شارع واحد يحمل اسم شخص من اللاذقية نعتقد أنه علينا واجب تجاه أدباء اللاذقية الذين عاشوا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وكان لهم دور كبير من الناحية الثقافية وقد ساهموا في نقل اللاذقية من جو القرية الى جو المدينة . » واقترحنا أن يعطى لشارع من اللاذقية اسم بعض هؤلاء الأدباء ومن بينهم الياس صالح اللاذقي^(٣٥) .

□ الحواشي :

- ١ - مجلة الجنان ، بيروت ، الجزء السادس عشر ، أول تشرين الأول ١٨٨٥ ص ٤٨٦ ، « مراني وديوان المرحوم الياس صالح » ، المطبعة الوطنية ، اللاذقية ١٩١٠ ص ١ - ٣٣ ؛ عيسى اسكندر معلوف ، مجلة النعمة ، دمشق ، السنة الثانية ، الجزء الخامس ١٩١٠ : الأب لويس شيخو : « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩١٠ : الأب لويس شيخو ، مجلة المشرق ، العدد الثاني ١٩١١ : الشيخ انطوان جميل ، مجلة الزهور المصرية (لا تذكر المصادر التي لدينا تاريخ العدد) ؛ رفيق بك التميمي ومحمد بهجت بك : « ولاية بيروت » ١٩١٨ ، المجلد الثاني ص ٤٧٦ - ٤٧٨ ؛ نصر الله طليع : « مشاهير اللاذقية » ، الياس صالح اللاذقي « مجلة النور » ، اللاذقية ، الجزء الثاني ، تموز ١٩٢٥ ص ٨٤ - ٨٦ ؛ جبرائيل سعادة : « محافظة اللاذقية » ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٦١ ص ١٨٦ ؛ نبيهة حداد : « الحياة الثقافية في الساحل العربي السوري » ، مجلة العمران ١٩٦٨ ص ١٩٤ : « المتجدد في الاعلام » ، الطبعة العاشرة ، دار المشرق ، بيروت ص ٤٢٠ ؛ خير الدين الزركلي : « الاعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين » ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٤ الجزء الثاني ص ١٠ - ١١ .
- ٢ - « مراني وديوان المرحوم الياس صالح » المذكور أعلاه ص ٨ - ٩ .
- ٣ - المرجع نفسه ص ١٢ .
- ٤ - المرجع المذكور أعلاه .
- ٥ - بالنسبة لأسرة صالح اعتمدنا على الشجرة العائلية التي وضعها رفيق بن الياس صالح . هي وثيقة مكتوبة بخط يد عنوانها « أرومة صالح ١٧٣٠ » وقد انتهى من تنظيمها بتاريخ ٢٠ كانون الأول ١٩٤٦ قبل وفاته بيومين ، وهي موجودة حالياً عند نجله السيد كمال صالح . تتضمن هذه الوثيقة ، علاوة على فروع الشجرة ، لمحة عن أهم شخصيات الأسرة . وقد رجعنا أيضاً في هذا المجال الى ماجاء في مخطوط الياس صالح : « آثار العقب في لاذقية العرب » المجلد الأول ص ١٦٠ - ١٦٦ .
- ٦ - خليل صالح لا يهم هذا البحث . يمكن الرجوع الى ما جاء عنه في « أرومة صالح ١٧٣٠ » .
- ٧ - سالم صالح لا يهم هذا البحث . يمكن الرجوع الى ما جاء في « أرومة صالح ١٧٣٠ » .
- ٨ - لا مجال أن نتحدث هنا عن حنا كبة (١٨٦٢ - ١٨٠٣) وعن الدور الذي لعبه في اللاذقية . توجد قصته مفصلة في آثار العقب في لاذقية العرب » المجلد الأول ص ١٥١ - ١٦٠ ، وقد أتى على ذكره عيسى اسكندر معلوف ، المصدر نفسه ونجد لمحة عنه في « أرومة صالح ١٧٣٠ » . وأشارنا اليه في مقالنا : « من كنوز اللاذقية المجهولة » قصة بناء اثري » مجلة التراث العربي ، تشرين الأول ١٩٨٠ ص ١١٥ - ١٣١ . نشير أنه كان لعنا كبة ابنة اسمها ايرين وابنان هما جرجس وديمثري .
- ٩ - توفي الياس فتى في يافا .
- ١٠ - توجد رواية هذه الحوادث في « أرومة صالح ١٧٣٠ » .
- ١١ - يقول أسعد داغر في ترجمته ان موسى صالح أنجب خمسة أولاد ذكور بينما لا نرى في « أرومة صالح ١٧٣٠ » الا أسماء ثلاثة أولاد ذكور هم الياس موضوع بحثنا وسليم (١٨٤٤ - ١٩١٤) ويوسف (١٨٤٧ - ١٩١٧) .
- ١٢ - المرجع المذكور أعلاه .

- ١٢- في « مراني وديوان المرحوم الياس صالح » ص ١ - ٧ . أما أسعد خليل داغر فهو أديب لبناني الأصل عاش في اللاذقية اثنتين وعشرين سنة متوالية واشتغل بالتدريس في المدرسة الانجيلية فيها . راجع بخصومه ادوار مرقص : « ديوان » المطبعة التجارية اللاذقية ١٩٣٥ ص ٣٦٢ - ٣٦٥ : خير الدين الزركلي، المصدر نفسه، الجزء الأول ص ٣٠٠ .
- ١٤- المرجع المذكور أعلاه .
- ١٥- ورد خطأ مطبعي في ترجمة أسعد داغر فجعلت سنة الولادة ١٨٣٦ عوضاً من سنة ١٨٣٩ وقد تسرب هذا الخطأ الى بعض المراجع رغم أنه أشير اليه في « الاستدراك » .
- ١٦- يبدو أن عدد سكان اللاذقية نزل الى هذا الحد بعد زلزال ١٧٩٦ الذي هدم قسماً من المدينة وزلزال ١٨٢٢ الذي ألحق بها بعض الأضرار . بعض الرحالة الذين زاروا اللاذقية خلال هذه الفترة يذكرون رقماً يتراوح بين أربعة وستة آلاف نسمة . (من بين هؤلاء : J. POUJOULAT, R. P. LAOORTY-HADJI, W. M. THOMSON)
- ١٧- راجع : James McKinnis BALPH: « Fifty Years of Mission Work in Syria » Pittsburgh 1913 : p. 26.
- ١٨- هي لوكيا ابنة تيودوري بتروفيتش . ولدت في استنبول سنة ١٨٥٥ وتوفيت بعبيرة (السودان) في ٤ تموز ١٩٢٤ .
- ١٩- هو رفيق صالح الذي آتينا على ذكره . ولد في ٢٠ آب ١٨٧٩ وتوفي في ٢٢ كانون الأول ١٩٤٦ .
- ٢٠- ان الكلمات والقصائد التي ألقيت يومذاك أو التي نشرت بمناسبة وفاته ، موجودة في « مراني وديوان المرحوم الياس صالح » المذكور أعلاه ص ٨ - ٣٣ .
- ٢١- « خطبة في حقيقة التهذيب » ، المطبعة العمومية ، بيروت ١٨٦٦ ، نشر نص هذا الكراس من جديد في مجلة البناء البيروتية ، العدد ٦٣٦ ، ١٨ حزيران ١٩٨٨ ص ٦٢ - ٦٤ .
- ٢٢- حسب الإحصاء الذي تم في سنة ١٨٦٦ .
- ٢٣- الطبعة الأولى في المطبعة الأميركية بالاسكندرية سنة ١٨٧٥ ، الطبعة الثانية في بيروت سنة ١٨٨٣ وتتألف هذه الأخيرة من ٨١٤ صفحة .
- ٢٤- لقد اطلعنا على الرسائل التي تمكن الأستاذ هاشم عثمان من العثور عليها ، منها خمس رسائل نشرت سنة ١٨٧٠ في مجلة الجنان واثنان وأربعون رسالة نشرت في جريدة الجنة .
- ٢٥- راجع كتابنا « المختصر في تاريخ اللاذقية » اللاذقية ١٩٨٤ ص ٤٦ - ٤٧ .
- ٢٦- F. LENORMANT: « Une persecution chrétienne en 1860; les derniers événements de Syrie »
- ٢٧- J. MICHAUD et J. POUJOULAT: « Correspondance d'Orient, 1830-1831 » Paris 1833 - 1835
- هو كتاب كبير في سبع مجلدات لم يترجم الياس صالح منه سوى القسم المتعلق باللاذقية (المجلد السابع ص ١٦٥ - ١٧٥) .
- ٢٨- أسعد داغر ، المصدر نفسه ص ٥ - ٦
- ٢٩- هذه المراجع المذكورة صراحة في مخطوط الياس صالح : فيلون الجبيلي (وهو المرجع الوحيد الذي يخبرنا ان الاسم الأول للاذقية هو « راميتا ») ؛ سترابون ؛ « جغرافية » ؛ بلين القديم ؛ لاكيان ؛ « الشرق المسيحي » ؛ البرت الاكسي ؛ مكسيموس مونرود ؛ « تاريخ الحروب الصليبية » ؛ ابن الأثير ؛ « الكامل في التاريخ » ؛ أبو الفداء ؛ « المختصر في أخبار البشر » ؛ ابن الوردي ؛ « تنمة المختصر في أخبار البشر » ؛ عماد الدين الاصبهاني ؛ « الفتح القسي في الفتح القدسي » ؛ أبو الفرج ابن العبري ؛ « تاريخ مختصر الدول » ؛ البطريق اسطفانوس الدويهي ؛ « تاريخ الأزمنة » ؛ الغوري يوسف الدبس ؛ « سفر الأخبار » .
- ٣٠- هناك عادة عند المسيحيين أن يدونوا في الفراغات التي في الكتب الكنسية ملاحظات وحوادث شاهدها أو سمعوا بها .
- ٣١- ان المقاطع المنشورة في مجلة النور هي التالية : المجلد الأول من المخطوط : ص ٩ - ١١ و ٦٢ - ٦٨ و ١١٤ - ١٣٩ و ١٧٣ . المجلد الثاني من المخطوط : ص ٧ .
- ٣٢- جبرائيل سعادة : « لحة عن تبغ اللاذقية في التاريخ » مجلة التبغ ، تموز ١٩٥٨ ص ٢٦ - ٢٨ .
- ٣٣- جبرائيل سعادة : « دير الفاروس » مجلة النعمة ، دمشق ، كانون الأول ١٩٦٠ ، ص ٥٣ - ٥٩ .
- ٣٤- راجع بحثنا « القيم التراثية لمدينة اللاذقية » الذي ألقى في جامعة تشرين بتاريخ ١٩٨٦/١١/٢ ، اثناء اسبوع العلم السادس والعشرين ، ونشر في جريدة الوحدة (اللاذقية) العددين ٩٢٦ و ٩٢٧ تاريخ ١٧ و ١٨ آب ١٩٨٧ .
- ٣٥- تفيدنا وثيقة يخط يد رفيق صالح أنه ، في الأربعينات ، قررت لجنة تابعة للبلدية تسمية أحد الشوارع باسم الياس صالح .